

أصداء حرب التحرير الريفية في بعض المنابر الصحفية الأمريكية والتركية

ذ عبد الرحمان المودن

موضوع الأصداء الدولية لحرب التحرير الريفية التي قادها محمد بن عبد الكريم الخطابي في أوائل العشرينيات من القرن الماضي موضوع نال العناية من قبل عدد من الباحثين منذ مدة، لأن وقائع تلك الحرب لم تثر انتباه الحكومات وحدها بل جلبت اهتمام الشعوب أيضا. لقد تتبعها الرأي العام الأوروبي بكامل العناية، فنشر الحزب الشيوعي الفرنسي مثلاً مجرياتها في صحافته اليومية، وتابعت الأوساط البريطانية تطوراتها بصورة مكثفة بعد معركة أنوال الشهيرة¹.

وإذا كانت أصداء حرب التحرير الريفية في المجتمعات الأوروبية قد حظيت باهتمام مبكر، فإن أخبارها لدى البلدان النائية كأمريكا الشمالية أو الفتية كتركيا الكمالية لم تنل حظها من العناية نظرا إما لبعد المسافة بين هذه البلدان وبين المغرب أو لقلة الاهتمام لدى أهلها بما يجري في الشمال الإفريقي، مما جعل عددا من الباحثين يفترضون عدم وجود مثل هذا الاهتمام أصلا، ويعدلون بالتالي عن البحث في هذا الاتجاه. على أن استبارات محدودة في صحافة البلدين تدل على أن الاهتمام بمجريات حرب الريف كان حاصلا لدى بعض المنابر الإعلامية إذاك. ولعله من اللافت أن نسجل منذ البداية أن الصحافة بهذين البلدين - على الأقل في حدود ما توصلنا إليه -

¹ من بين العناوين الهامة حول الحركة التحريرية الريفية في الأونة الأخيرة، يمكن الإشارة إلى المؤلفات التالية حيث يعثر القارئ على بيبليوغرافيات وافية حول الاهتمام الغربي بمجرياتها: G. Ayache, *La guerre du Rif*, Paris, Editions l'Harmattan, 1996; M. R. de Madariaga, *Espana y el Rif, cronica de una historia casi olvidada*, Melilla, Uned-Centro Asociado de Melilla, 1999; Z. Daoud, *Abdelkrim, une épopée d'or et de sang*, Paris, Séguier, 1999.

كانت لها مواقف تتميز إما بالحياد الإيجابي كما هو الأمر في حالة الصحافة الأمريكية أو التعاطف الصريح كما هو الشأن بالنسبة للصحافة التركية. كان العديد من الصحفيين الأمريكيين متأثرين بجو المبادئ الويلسونية¹ المنادية بحق الشعوب في تقرير مصيرها، فكانوا ينظرون إلى الحركات التحررية ببعض الإيجابية حتى ولو أنهم كانوا يشتركون مع مجتمعات البلدان المستعمرة نفس النظرة الاستعمارية التحقيرية إلى الشعوب المعنية. أما الصحفيون الأتراك، من أمثال محمد عاصم - الذي ستعرض لحالته فيما يأتي - ، فإنهم كانوا متحمسين للحركات التحررية بالبلدان الأخرى إذ أن نجاحها كان بمثابة الترسيع لمسار الحركة التحررية التركية ذاتها.

1- المتابعة الصحفية لحرب الريف بأمريكا الشمالية

خصت بعض الصحف اليومية واسعة الانتشار بأمريكا الشمالية، مثل شيكاغو دايلي نيوز (Chicago Daily News)، وشيكاغو تريبيون (Chicago Tribune)، الحرب الريفية بتغطية صحفية لافتة. فاليومية الأخيرة مثلاً بعثت أحد مراسليها الشباب، وهو فنسانت شيان (Vincent Sheean)، إلى منطقة الريف لموافاتها بتقرير عن مجريات الحرب من عين المكان. كان فنسانت شيان من الشباب الأمريكيين المغامرين الذين غادروا أمريكا غداة الحرب العالمية الأولى نحو أوروبا حيث عايشوا الأحداث الجلية التي كانت تحصل بها إذاك مثل احتلال فرنسا لمنطقة الرور، أو المؤتمرات الدولية الكبرى كمؤتمر لوزان الذي أعاد لتركيا استقلالها وهيبتها. ونظرا لكثرة اهتمامه بالقضايا الكبرى وتجربته الصحفية السابقة بأمريكا، فإن شيان أصبح مراسل شيكاغو تريبيون من باريس؛ وبهذه الصفة تنقل بين العواصم الأوروبية واستجوب أكثر من زعيم أوروبي بها.

¹ أعلن الرئيس الأمريكي وودرو ولسون (Woodrow Wilson) في خطابه ليوم 8 مارس 1918 - والحرب العالمية الأولى ما تزال قائمة على أشدها-، عن مبادئه الأربعة عشر الشهيرة، بغية إقامة السلم المرتقب على أسس جديدة من بينها نُبذ الدبلوماسية السرية وتأسيس عصبة للأمم لتدبير النزاعات الدولية مع ضمان استقلال الأمم وحققها في تقرير مصيرها كانت كبيرة أم صغيرة.

وخلال سفرة له إلى مدريد - التي كانت تعيش في غمرة التقلبات السياسية الناتجة عن انهزامات الجيش الإسباني أمام الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي - ، ونظرا لضبابية الأخبار المتوفرة هناك عن وقائع الحرب بالريف، اقتنع بضرورة الوقوف على واقع الأمر بالتوجه إلى عين المكان. وعلى الرغم من اعتراض مسؤولي جريدته في بداية الأمر تحسبا للمخاطر المحتملة، فإنهم رخصوا له في الأخير، مما مكنه من الالتحاق بطنجة في نهاية 1924، فاستغل رحلة إلى تطوان لاستجواب الجنرال بريمو دي ريفرا (Primo de Rivera) عن مآل الحرب، وكانت القوات الإسبانية قد اضطرت إلى التراجع عن شفشاون وعن جل الأراضي خارج تطوان مع الاحتفاظ بشريط ضيق يربطها بالعرائش. كل هذه العوامل رسخت الشاب المغامر في رغبته في الانتقال إلى ساحة المعارك لتحقيق سبق صحفي. وبما أن السلطات الاستعمارية الإسبانية لم تساعد على تحقيق مشروعه، فإنه انتقل إلى منطقة الاستعمار الفرنسي فتوجه إلى الرباط ثم إلى فاس فتازة وتاوريرت ثم وجدة عائدا منها إلى تاوريرت حيث شرع في اختراق منطقة الريف من هوامشها الجنوبية عابرا بلاد المطالسة ثم جبال الريف إلى أن تم له اللقاء مع الزعيم الريفي بقرية أيت قمره غير بعيد عن أجدير، وحصل منه على مقابلة صحفية مطولة نشرها في الجريدة ثم أدرجها بعد ذلك في المؤلف الذي خصصه لرحلته عبر الريف¹.

وبعد سبعة أشهر من رحلته الأولى، عاد شيان إلى الريف، مبعوثا هذه المرة من قبل مجموعة من الصحف الأمريكية في آن واحد، نظرا لما صادفته تقاريره السابقة من متابعة في صحيفة شيكاغو تريبيون. ومن بين الصحف التي احتضنت مشروع شيان الجديد يوميات نيو يورك وورلد (New York World) وبالتيمور سان (Baltimore Sun) وواشنطن بوسط (Washington Post) بالإضافة إلى شيكاغو دايلي نيوز. وإذا كانت مدة

¹ أثبت شيان جملة مشاهداته والوقائع التي عايشها في نص هذه الرحلة التي تُعد من النصوص المفيدة والغنية بالإشارات حول واقع الثورة الريفية. انظر مؤلفه: *An American among the Riffi*, The Century CO, New York & London, 1926. كما أنه عاد فأوجز وقائع هذه الرحلة مضيفا إليها مشاهداته خلال رحلته الثانية في مؤلف ثان له بعنوان: *Personal History*, The Literary Guild, New York, 1935. راجع أيضا الموقع: <http://www.traces.org/vincentsheean.html>

رحلته الأولى لم تتعد الشهرين ، فإن رحلته الثانية قد فاقت الثلاثة أشهر (غشت - أكتوبر 1925)، وتمكن خلالها من اللقاء مجدداً بمحمد بن عبد الكريم الخطابي ، بل إنه رافقه إلى الخطوط الأمامية على جبهة المواجهة مع الإسبان في نواحي الحسيمة.

هكذا ، فإن رواية شيان في مؤلفيه تعطي صورة دقيقة عن واقع الحرب الريفية خلال سنة 1925 الحاسمة بالنسبة للصراع الريفي الإسباني. إلا أن المؤلفين غنيين أيضاً بالملاحظات والمشاهدات المتعلقة بالتنظيمات التي أحدثها ابن عبد الكريم وبمؤسسات الثورة الريفية وكذا بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في منطقة الريف¹. وفي عدد من المحطات ، يشيد شيان بإقدام ابن عبد الكريم وذكائه وقوة شرعية مطلبه باستقلال بلاده ، ولكنه يتصور بوضوح - في مؤلفه الثاني على وجه الخصوص لأنه نُشر بعد عشر سنوات من تاريخ رحلته الثانية - المآل المحتوم لصراع غير متكافئ لا بد أن ينتهي بتغلب التحالف الاستعماري على المقاومة الريفية ، بعد أن دخل الفرنسيون إلى المعركة بجانب الإسبان.

رواية شيان ترصد إذن المرحلة الحاسمة التي انقلب فيها ميزان القوة بين المقاومة الريفية وبين الإسبان والفرنسيين لصالح القوتين الاستعماريتين. وليس من الغريب أن تثير هذه المرحلة اهتمام المراقبين غربا وشرقا لتوالي أحداثها وتعدد تقلباتها. وهذه المرحلة بالذات هي التي ارتفعت فيها درجة متابعة الصحافة التركية لوقائع الثورة الريفية.

2- أخبار الثورة الريفية ببلاد الأناضول

تتجلى أهمية أصداء حرب التحرير الريفية بالديار التركية في مستويين :

¹ انظر المقتطفات الواردة في القسم الأخير من هذا النص.

- المستوى الأول يرتبط بكون الاهتمام التركي بهذه الحركة يدل على مدى شهرتها حتى في بلدان مثل تركيا التي كانت إلى حين قريب تكاد تجهل كل شيء عن المغرب، وأحرى عن الريف بشكل مخصوص.

- أما المستوى الثاني، فيتعلق بكون تركيا كانت تمر بتجربة شبيهة بما كان يجري بمنطقة الريف في أوائل العشرينيات من القرن الماضي. فكما هو معلوم، سبق أن انهزمت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى إلى جانب إمبراطوريات أوروبا الوسطى (ألمانيا والنمسا والمجر)، فكان أن وقع السلطان العثماني على شروط الهزيمة المذلة للدولة العثمانية في معاهدة سيفر (Sèvres). كانت شروط هذه المعاهدة تقضي بخضوع الأراضي العثمانية وبلاد الأناضول، على وجه الخصوص، لاحتلال متعدد الجنسيات تنال فيه كل من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا واليونان نصيبها من متخلفات الدولة العثمانية. غير أن أحد الضباط الأتراك المرموقين - وهو مصطفى كمال الذي فاز بلقب "الغازي" لحسن بلائه خلال الحرب -، رفض الخضوع لشروط الهزيمة المملأة، واتجه إلى أواسط بلاد الأناضول، بعيدا عن العاصمة إستانبول حيث يوجد السلطان تحت الاحتلال الفعلي للأجانب، فأسس حكومة مستقلة وشرع في مقاومة الاحتلال الأجنبي الذي كانت اليونان تمثل رأس الرمح بالنسبة إليه، حيث أنها شرعت في بسط سيطرتها على بعض المناطق التركية بالساحل الأناضولي الغربي حوالي مدينة إزمير. ومن الجدير بالإشارة أن اليونان تقع من الوجدان التركي موقع إسبانيا من الشعور المغربي. فهذا بلد فقير متخلف عن الركب الأوروبي، سبق للعثمانيين أن سيطروا عليه لقرون عدة، لكنه كان أول المتحمسين لاحتلال الأراضي التركية غداة الحرب. فكان السلوك اليوناني في غرب الأناضول شبيها بمثيله الإسباني في شمال المغرب إلى حد كبير. وبعد معارك ضارية، تمكن مصطفى كمال من طرد اليونان من إزمير محققا بذلك انتصارات كبرى أهلت تركيا الحديثة لكي تحصل على مراجعة المعاهدات المذلة فتتال الاعتراف الدولي باستقلالها قبل

أن يعلن مصطفى كمال عن إسقاط نظام السلطان وميلاد الجمهورية التركية وما تلاها مما هو معلوم من حذف للخلافة الإسلامية¹.

هكذا، كان من الطبيعي أن تتلقف تركيا الحديثة أخبار التحركات التحريرية عبر حوض البحر الأبيض المتوسط ولا سيما على ضفته الجنوبية باعتبارها بلدا قام هو ذاته بثورة تحريرية قادت إلى زعزعة حسابات القوى الاستعمارية غداة الحرب العالمية الأولى. ولا غرابة أن يكون المجتمع التركي وقتها على استعداد لتشجيع الحركات الشبيهة بما كان ينشغل به من حركة تحررية هو نفسه. ولعل هذا ما يفسر حماس المتابعة لمجريات وقائع حرب الريف لدى بعض الصحف التركية، ومن بينها صحيفة الوقت².

كانت صحيفة الوقت تصدر تحت إشراف صحافيين مرموقين هما أحمد أمين ومحمد عاصم، اللذين سبق لهما أن كانا مراسلين تركيين بألمانيا أيام الحرب. وبعد عودتهما إلى إستانبول في سياق انهزام الدولة العثمانية، تقربا من الأوساط المساندة لحركة مصطفى كمال ولا سيما من مرافقه ونائبه عصمت باشا، الذي عرف لاحقا تحت اسم عصمت إنونو، فكانت صحيفة الوقت بذلك من المنابر المدافعة عن الحركة الكمالية.

وقد أولت يومية الوقت عناية خاصة للأحداث المتلاحقة بالريف بعد أن فتح الأمير بن عبد الكريم الجبهة الجنوبية في ربيع 1925، على إثر التحرشات الفرنسية بالقبائل الموالية للثورة الريفية. تابعت الصحيفة الانتصارات السريعة للقوات الريفية التي تمكنت من السيطرة على مجموعة من المواقع الفرنسية حتى إنها أصبحت تهدد مدينتي تازة وفاس.

¹ - عن مجمل هذه الأوضاع المضطربة والمتقلبة بتركيا غداة الحرب العالمية الأولى، انظر: أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة (إشراف وتقديم)، نقله إلى العربية صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإستانبول (أرسكا)، إستانبول، 1999، ص 139-144؛ و Robert Mantran, *L'Empire Ottoman* (sous la direction de), Fayard, Paris, 1989, pp. 637-647.

² - للمزيد من التفصيل حول صحيفة الوقت وخطها التحريري خلال الحرب وبعدها، انظر: Nuri Inugur, *Türk Basın Tarihi*, Istanbul, Gazeteciler Cemiyeti, 1992, pp. 32-35.

والملاحظ أنه لم يكن بمقدور جريدة الوقت أن تبث ببعض الموفدين الخاصين إلى عين المكان بالريف أو بالمغرب للوقوف على مجريات المواجهات، وبالتالي فإنها كانت تعتمد على ما كانت تتوصل به من قصاصات الوكالات العالمية مثل وكالة فرانس برس (Agence France-Presse)، أو من مراسلي الوكالة التركية - وكالة الأناضول (Anadolu Ajansı) - الموجودين بأوروبا ولا سيما بفرنسا. إلا أن محرري صحيفة الوقت كانوا يعيدون تحرير القصاصات التي يتوصلون بها فيعطونها وجهة وطنية تدافع عن الحرية وعن حقوق الشعوب المستعمرة. ومن جهة ثانية، فإن محمد عاصم، رئيس تحرير الجريدة، كان يحزر بين الفينة والأخرى مقالات تركيية تتعرض لتقويم أوضاع الحرب الريفية ومستجداتها.

ومن أهم المقالات التي نشرت بهذه الصحيفة تحت توقيع محمد عاصم مقالتان صدرتا يومي 11 و 12 يوليوز 1925¹. ويلح محمد عاصم في هاتين المقاليتين على جوانب أساسية من تطور الحركة التحريرية الريفية من بينها:

- أهمية الانتصارات التي حققها الأمير بن عبد الكريم على الفرنسيين على الجبهة الجنوبية بعد أن تمكنت قواته من دحر الجيش الإسباني وطرده في الشمال إلى السواحل.
- كون فرنسا تتفاوض مع الإسبان بقصد الهجوم المشترك على قوات الأمير.
- مناورات القوى العظمى، بحيث ربما تكون هناك مقايضة بين الإنجليز والفرنسيين يطلق أولئك اليد بموجبها لهؤلاء بمنطقة الريف بالشمال الإفريقي مقابل تمتعهم هم بالانفراد بمنطقة الموصل بالشرق الأوسط.

¹ - أدرجنا صيغة لهما من تعريبتنا ضمن المقتطفات في نهاية هذا النص.

- كون فرنسا ربما تهدف من تدخلها في الحرب بجانب إسبانيا إلى تحقيق غايات غير معلنة تتمثل في الاحتلال الكامل لمنطقة الريف.

وفي مقال يوم 12 يوليوز 1925، أورد محمد عاصم خبر اقتراح الفرنسيين والإسبان الاعتراف باستقلال الريف تحت رئاسة ابن عبد الكريم الخطابي شريطة أن يعترف هذا الأخير بسيادة السلطان بالرباط. وقد احتفى محمد عاصم بهذا الخبر أيما احتفاء إذ عنوان مقاله "دولة الريف المستقلة"، وسمى الريف بـ "الريفستان"، أي "دولة الريف"، كما ألح على كون الريف قد حصل على استقلاله عن طريق الكفاح المسلح، مقتنيا في ذلك أثر تركيا التي حققت استقلالها بواسطة المقاومة المسلحة تحت قيادة مصطفى كمال.

بيد أن الصحافي المجرّب يحذر الزعيم الريفي من مطبات المناورات المحتملة التي قد تلجأ إليها القوى الاستعمارية، فينبه إلى كون فرنسا وإسبانيا ربما تسعيان إلى كسب ما يكفي من الوقت عن طريق مقترحهما وربما تمددان مرحلة الوعود والمفاوضات وغايتهما الخفية تجهيز نفسيهما ونقل ما يكفي من السلاح إلى الميدان لكي تتمكن من تنظيم هجوم كاسح منسق على الأراضي الريفية، من جهتي الشمال والجنوب في نفس الآن.

لقد أظهرت التطورات المتلاحقة بعد يوليوز 1925 أن تخوفات محمد عاصم وتحذيراته كانت في محلها. فبعد بضعة شهور فقط مما نشره في جريدة الوقت، نظمت القوتان المستعمرتان تطويقا متناسقا من جهتي الشمال والجنوب - كما هو معلوم - مما أدى إلى انكسارات متتالية على الرغم من المقاومة الشرسة التي أبدتها المجاهدون الريفيون، فكان المآل في نهاية المطاف هو استسلام الأمير الريفي إلى الفرنسيين في أواخر مايو من سنة 1926¹.

خلاصة القول إن صحيفة الوقت، باعتبار قربها من بعض النافذين في المشهد السياسي بتركيا الكمالية، قد أسهمت ولا شك في إثارة اهتمام الرأي العام التركي إلى

¹ انظر المراجع المذكورة في الهامش رقم 1 أعلاه.

مجريات حرب التحرير الريفية خلال مرحلة مفصلية من تطورها، ويتعلق الأمر بمنقلب أطوارها من ثورة منتصرة كادت تحقق الاعتراف الدولي باستقلال دولتها إلى حركة محاصرة من جميع أطرافها من لدن قوتين استعماريّتين لهما طاقات مادية وعسكرية هائلة لا قبل لمجاهدي الريف بمواجهتها على الأمد البعيد. ولا شك أن التعاطف العميق الذي أبدته الصحيفة مع الحركة الريفية كان عربونا عما كانت الأمة التركية تكنه من تضامن ومساندة لها. إلا أن هذا التضامن ظل ولا شك حبيس المستوى المعنوي لجملة من الأسباب لم تكن أقلها شأنًا الحالة الهشة للدولة الكمالية نفسها حيث كانت لا زالت تصارع القوى الأجنبية لترسيخ أسس استقلالها. وبالتالي، فإن الحركة الريفية كانت مضطرة إلى مواجهة القوتين الاستعماريّتين بوسائلها الخاصة المتواضعة، فكان أن حصل المصير النهائي المحتوم.

3- مقتطفات

أولا- رحلة فنسانت شيان¹: مقابلة الصحفي الأمريكي مع الزعيم الريفي

"كانت قرية أيت قمر² أكبر التجمعات السكنية والبشرية التي صادفتها منذ أن غادرت المناطق المغربية الخاضعة لفرنسا³. كانت القرية تضم إذاك بين اثنا عشر مائة وثلاثة عشر مائة أسير إسباني. إلا أن عددهم ارتفع منذئذ بما يقدر بين ستمائة وثمان مائة. وهناك حامية من أربع مائة من الحراس الريفيين الذين ينتمون إلى أقدم المجندين وأحسنهم تدريباً وكلهم تقريباً من قبيلة بني ورياغل الذين يدينون بالولاء المطلق للسلطان [ابن عبد الكريم]⁴. كان الأسرى الذين شاهدتهم على الطريق، غرب أيت

¹ الصفحات 170-185 من كتاب *An American among the Riffi*، مرجع سابق (من تعريينا عن الأصل الإنجليزي).

² على بعد 16 كلم من مدينة الحسيمة.

³ يستعمل المؤلف هنا العبارة الشائعة آنذاك، وهي "المغرب الفرنسي" (French Morocco) التي فضلنا تعريبها باستمرار بعبارة "المناطق الخاضعة لفرنسا" أو ما في معناه.

⁴ لا شك أن فنسانت شيان يستعمل هنا العبارة المتداولة بالريف آنذاك للإشارة إلى الأمير ابن عبد الكريم. والملاحظ أن شيان لم يكثر كثيراً بضرورة التجانس في تسمية محمد بن عبد الكريم، فمرة يسميه عبد الكريم تبعاً لاسم الشهرة الذي عُرف به لدى الرأي العام الأوروبي، وطوراً يعطيه اسمه الكامل: محمد بن عبد الكريم، تبعاً لما كان متداولاً بالريف

قمرة في اتجاه بني بقوية، يشتغلون بدون حيوية كما يفعله الإسبان في كل مكان، في حين كان ثلاثة أو أربعة ريفيين يقومون بحراستهم، متكئين على بنادقهم. أما في أيت قمرة ذاتها، فإن الأسرى كانوا يسكنون في ثلاثة من بيوتها الطينية المستطيلة، متكديسين مزدحمين، لأن المجال يضيق بهذه القرية. لقد تحدثت إلى بعض هؤلاء الأسرى؛ كانوا غير حليقي اللحي، محبطين يائسين، إلا أن مساكنهم لم تكن مختلفة عن مساكن الجنود الريفيين، بل إن حياتهم أفضل مما كانوا سيعيشونه من رعب ووحل لو أنهم شاركوا في معركة جبالة، ولكنهم كانوا مع ذلك تعساء؛ فما أبأس هؤلاء الشباب إذ أن المسافة بين أيت قمرة [وبلادهم] الأندلس كالمسافة بين الأرض والسماء.

تتوفر القرية العربية¹ على "كانتين" [متجر]، حيث يمكن اقتناء السكر والشاي وما ماثلهما من الحاجيات بالنسبة لمن يتقاعس عن التوجه إلى السوق الريفي المعتاد؛ وللقرية أيضا مبنى طيني يضطلع بدور المقهى، ولعله المقهى الوحيد بالريف. وتستقر هذه القرية في منخفض بين تلّين فتبدو تامة الهدوء، لا طائرات في السماء ولا شيء يوحي بأن هذه هي العاصمة الفعلية لشعب يخوض حربا ضروسا.

قبل أن نصل إلى القرية، وعلى مسافة ميلين أو ثلاثة، شاهدت مجموعة من الحقول المزروعة على يمين الطريق ويسارها. لقد أولى عبد الكريم² عناية كبيرة لزراعة الباطاطس. وهكذا، فإن غالبية الجنود الفارين الذين يغادرون صفوف الليفي الأجنبي الفرنسي أو الإسباني، أو يفرون من فرق الجيوش النظامية، ويبتغون الانخراط في خدمة الأمير الريفي بنوع من الرومنسية، يجدون أنفسهم مجبرين على القيام بأعمال مملة من قبيل زراعة منتوج مبتذل كالبطاكس، وتنقيته من الأعشاب ثم استخراجها من الأرض.

وبقوة المغرب، وفي مناسبات أخرى كما هي الحال هنا، يكتفي بتسمية محمد أو بعبارة السلطان أو أمير الريف. وقد التزمنا في الترجمة بالوفاء للنص ما لم يخل ذلك بالمعنى. أما ما يوجد بين معقوفين، فقد أضفناه بقصد التوضيح كلما تطلب الأمر ذلك.

¹ يستعمل شيان هذه الكلمة بمعنى مغربية أو أمازيغية حسب السياقات.

² انظر الهامش 11 أعلاه.

أما مسكن السلطان، فيتمثل في مبنى طيني على شاكلة باقي مباني القرية لكنه أوسع منها، ويقع في الجهة الشمالية- الشرقية من القرية نفسها. فالطريق تؤدي إليها وتنتهي بها، حيث أنها تُستعمل من قبل سيارات محمد بن عبد الكريم وهي أفضل من أي طريق أخرى بالريف.

ترجلنا أنا وسيدي محمدي¹ عند الباب الخارجي، فاستقبلنا أربعة حراس ريفيين بالتحية. تحدث مرافقي إليهم فقادونا إلى ساحة داخلية أولى شبيهة بساحة منزل السلطان بأجدير حيث سبق لي أن أقمت. وخلف هذه الساحة ساحة ثانية توجد في نهايتها غرفة وقف على بابها حارس آخر. دخلنا هذه الغرفة دون أن ننزع نعالنا. كانت غرفة مربعة الشكل، فارغة من الأثاث، عدا طاولة وثلاثة كراسي، وهي الكراسي الأولى التي شاهدتها بالريف. كانت الطاولة مغطاة بالأوراق وخلفها جلس محمد بن عبد الكريم.

ألقي علينا نظرة فاحصة متأنية بعينه البنيتين النافذتين وهما تستقران في الأخير على هذا الزائر المسيحي. كان أدكن اللون، قصير القامة ولو أنه ربما اعتبر متوسطها في جهة أخرى، كما أنه يبدو ذا بنية قوية. كان يرتدي ثيابا على قدر كبير من البساطة، تتكون من الجلابة البنية المحلية الصنع ومن القميص الناصع البياض. مد لنا يده فلمستها ورفعت أناملني إلى شفتي على الطريقة الريفية.

- قال سيدي محمدي: «إن السلطان يفضل مباشرة الحوار بلغتنا الريفية وسوف أقوم بالترجمة إلى اللغة الفرنسية».

تفحص محمد بن عبد الكريم الورقة الموضوعة أمامه، وكانت هي الورقة ذات الحجم الكبير التي كُتبت عليها أسئلتي الستة² والتي كانت هوامشها مملوئة بالتعليقات

¹ - يمثل سيدي محمدي بن الحاج الهيثمي واحدا من أهم أعضاء الديوان في الحكومة الريفية، وهو من المدنيين القلائل إلى جانب بن عبد الكريم نفسه. أما بقية أعضاء الديوان، فكانوا كلهم يشاركون في العمليات العسكرية. وكان سيدي محمدي يشغل منصب الكاتب العام للحكومة وهو الذي رافق شيان أثناء التنقل من أجدير إلى أيت قمره للحصول على مقابلة محمد بن عبد الكريم. أنظر كتاب *An American among the Riffi*، مرجع سابق، ص 136-137.

² - سبق للصحفي أن تقدم بها لمساعدني محمد بن عبد الكريم تحت طلبهم.

المكتوبة بالخط العربي. وقد سبق أن أخبرني سيدي محمدي أن الديوان تدارس تلك الأسئلة في اليوم السابق وأن الأجوبة التي سوف تعطى عنها قد تكون نهائية. كان السؤال الأول يرتبط بطلب تصريح حول موقف حركة الريف من الجامعة الإسلامية وعلاقتها بها إن وجدت هذه العلاقة بالفعل.

- «لا يوجد شيء اسمه حركة الجامعة الإسلامية»¹. حقا، كانت النبرة تقريرية نهائية. كان عبد الكريم يتحدث بصوت قوي منخفض، وحيد النبرة مستعملا اللسان الشلحي [الأمازيغي]. ليس ثمة أي تهرب من السؤال، بل إنه تحدث بكامل الصراحة.

«لا يوجد شيء اسمه حركة الجامعة الإسلامية. كل هذا الصخب حول الجامعة الإسلامية إنما المقصود منه تخويف الفرنسيين والإنجليز وحشد معاداتهم للحكومة الريفية في صراعها مع إسبانيا. ليست لنا أي علاقة كيفما كان نوعها مع أي حركة في المغرب الخاضع لفرنسا أو في الجزائر أو تونس أو مصر، كما أننا لا ننوي القيام بأي محاولة لتأسيس مثل هذه العلاقة. إن مقاومتنا ذات طبيعة وطنية صرفة، وعدونا الحقيقي الوحيد هي إسبانيا. غير أن هذا العداء ينبع من إرادة إسبانيا وليست لنا أي رغبة فيه، فلا شيء يروقنا أكثر من السلم مع إسبانيا ومع العالم بأسره».

أوضح [ابن عبد الكريم] أن الظروف الجغرافية لشمال إفريقيا تجعل كل تواصل منتظم بين الجماعات الإسلامية من باب المستحيلات، كما أنه سقّه بازدرء أي فكرة عن تحالف بين السلطات الريفية والمجموعات المتمردة بالصحراء وسوس أو بأي من المناطق المحاربة الأخرى بإفريقيا.

واصل الحديث، مشيرا إلى سؤالي الثاني المتعلق بشروط السلم: «أما بخصوص السلم، فإنه سوف يقام متى رغبت إسبانيا في ذلك. إننا نرغب قبل كل شيء في السلم

¹ - لهذه المقابلة الصحفية أهمية خاصة باعتبارها تعكس لحظة محددة من تقويم الزعيم الريفي لوضع الحركة الريفية وللعلاقات مع كل من إسبانيا وفرنسا. وتدل تصريحات ابن عبد الكريم على مدى متابعته لمجريات السياسة الدولية، كما أنه يبرز في ذات المقابلة عن مدى قدرته على المناورة السياسية والدبلوماسية.

وفي حرية العمل. وكنا نتمنى أن تكون إسبانيا قبل كل الأمم الأخرى على علاقات ودية معنا وأن تتصرف قدر الإمكان باعتبارها صديقا وحليفا لنا. غير أنه لدينا بعض الشروط والمطالب التي لا يمكن التنازل عنها بحال. أولها وأهمها أن ينسحب كل الجنود الإسبان - الموجودين على أرض المغرب، من المحيط الأطلسي إلى الحدود الشرقية - ، إلى ثغري سبتة ومليلية أو إلى إسبانيا.

لن يرضينا أي شيء سوى الإلغاء الكامل للحماية الإسبانية. نطالب بهذا الأمر باسم الأمة المغربية جمعاء، بما أن الحماية الإسبانية لم تحمل ولا تستطيع أن تحمل معها إلا البؤس والتعاسة بالنسبة لشعبنا. إن الحماية لا تحمي أي شيء بما في ذلك الجندي الإسباني ذاته. إذا ما تخلت إسبانيا عن ادعائها بالحق في هذه الحماية المزيفة، فإننا سوف نقبل بالشروع في مفاوضات السلم تحت الشروط التالية :

أولا ، يجب الاعتراف بوضوح باستقلال الريف وبسيادته الوطنية.

ثانيا ، تسليم مجموع المجال الممتد بين منطقة مليلية ومنطقتي سبتة وطنجة إلى [حكومة] الريف.

إننا التزمنا التزاما قاطعا بتحرير السكان المضطهدين للأنجرة والعرائش من الحكم الإسباني ، وسوف نوفي بالتزامنا مهما كلفنا الأمر من ثمن أو زمن. على أنه بعد أن تتخلى إسبانيا عن حمايتها المزعومة ، سنكون على أتم الاستعداد للتفاوض على أي تسوية معقولة فيما يتعلق بإدارة المنطقة الساحلية بين طنجة وحدود المناطق الخاضعة لفرنسا. فلسنا نطالب بالاعتراف لنا بالسيادة على هذه المنطقة ، المشتملة على الأنجرة والأراضي الموجودة إلى الجنوب من طنجة في اتجاه العرائش. صحيح أننا نمتلك الآن السيادة على هذه المناطق ، ولكننا لن نطالب بأكثر من إلغاء الحماية عليها. وبعد ذلك ، يمكننا التفاوض في شأن تدبير هذه الجهات. غير أن الإسبان لا بد أن يغادروها. فقد وعدنا بتحقيق ذلك وسوف نحرص على إنجاز هذا الوعد.

إننا نقترح السلم على أساس قاعدة عامة، تشرك كل القوى المعنية بمسألة المغرب في إيجاد الحل. لن نقبل أبدا بالحماية الإسبانية على أي جهة من المغرب حيث أن الحكم الإسباني أظهر عن قسوته وقلة كفاءته مما خلف عواقب وخيمة بالنسبة لشعبنا. ومع هذا، فإذا ما تم اقتراح بعض الحلول من قبيل تدويل المناطق الساحلية، فإننا على استعداد للدخول في مفاوضات مع الأمم المعنية.

إن لإسبانيا الحق في ثغري سبتة ومليلية اللتين تعتبران اليوم - بعد كل هذه القرون - بمثابة مدينتين إسبانيتين، ولكن ليس لها الحق في أي جهة أخرى. أما بالنسبة لبقية المغرب، فإن من يجب أن يتكلف بتدبير شؤونه هي الحكومة المخزنية أو نظام إدارة دولية مسؤولة يمكن أن ينبثق من أي حل توافقي».

كان محمد [ابن عبد الكريم] يتلفظ بهذه التصريحات على مهل، يتوقف عند نهاية كل جملة أو فقرة مطولة، بينما كان سيدي محمدي يقوم بالترجمة. كانت هذه العملية بطيئة جدا خاصة أنني كنت أسجل تقريبا كل كلمة، فكان لي الوقت الكافي لتفحص عيائه وهو يتحدث. رأيت دهاء كبيرا وذكاء ثاقبا ممتزجا ببعض التحفظ الرصين [...] لم يكن هذا السلطان همجيا ولا غبيا. لكن من جهة أخرى شعرت أنه لم يكن نابغة من قبيل النوايع المعتادين: لم يكن من جنس المتحمسين المتشبهين بالأنبياء كما قد يتخيله الإنسان. كان عقلا خارقا يعالج مشكلة وطنية مستعصية، لا أكثر.

واصل ابن عبد الكريم الحديث بالتصدي لسؤالي الثالث حول الصيغة المرتقبة لنوع الحكم بالريف. «عندما يستقر السلم في النهاية، سوف نستمر في الصيغة الحالية لحكمنا. أفترض أنكم تنعتونها بنظام الملكية المطلقة. سوف نستمر باعتماد نظام الملكية المطلقة لأنه أعطى الدليل بأنه أفضل نظام بالنسبة لشعبنا. لكننا ننوي تحويل حكمنا، مع مرور الزمن، إلى ملكية دستورية ذات مواصفات أكثر تحررا ونتمنى أن نقيم مجلسا وطنيا مع هيئة وطنية على غرار المجلس القائم بأنقرة. لكن هذا لن يتم الآن ولن يتحقق قبل جيل كامل على الأقل.

إن تسمية "الجمهورية الريفية" من التسميات غير الموفقة. لقد أطلقتها علينا في البداية بعض الصحف الإنجليزية وكذا بعض وكلائنا المتحمسين من الإنجليز أيضا. أما نحن، فلم نُقم أبداً بجمهورية بالمعنى الغربي للكلمة ولا نعتزم القيام بذلك. والواقع أن الكلمة الإسبانية (república) التي تعني جمهورية، وقع تبنيها في لغتنا بمعنى المجموعات المحلية الصغيرة، وهي مجموعات أصغر حتى من مستوى القبيلة، وتشابه لجنة الضباط لدى الإسبان (juntas). هكذا، فلدينا مثلاً عدد من "الجمهوريات" في كل سرية من سرايا سلاح المشاة الريفي وكلمة الجمهورية لا تعني أي شيء آخر بالنسبة لأهاليها.

أما فيما يتعلق بسلطة السلطان المزعوم بالمغرب، فإننا لا نعترف بسيادة مولاي يوسف ولا ننوي أبداً الاعتراف بمثل تلك السيادة. إن حكم مولاي يوسف بالمغرب أسطورة تواطأت القوى العظمى على الاعتقاد فيها ترضية لفرنسا، مع أن الكل يعرف حق المعرفة أن يوسف أسير الفرنسيين ولا يستطيع القيام بأي حركة من تلقاء نفسه. وليس في نية حكومة الريف أن تعترف بسيادة أي أسير حتى ولو سُمي سلطاناً.

وحتى لو كنا على استعداد لقبول شرعية سلطان مغربي عربي، فعليك أن تتذكر أن مولاي يوسف ليس له أي حق كيفما كان في العرش. ذلك أن أخويه الأكبر منه سناً - وكانا حاكمين شرعيين - ، قد أزيحا معا من الحكم. وأخوه مولاي حفيظ الذي يقيم حالياً بإسبانيا، تم خلعُه بالقوة من قبل الفرنسيين لأنه لم يكن طيعاً بما فيه الكفاية. فهل تتصور أن شعباً حراً فخوراً ومتشبعاً بماضيه المجيد يمكن أن ينحني أمام سلطة دمية مثل يوسف؟ فلو كان لأحد سلاطين فاس الحق في حكم بلاد الريف، فلن يكون هو يوسف، بل سيكون أخاه حفيظ. غير أننا لا نقبل مبدأ سيادتهما أصلاً، إذ أن بلاد الريف مستقلة بالطبع. ولهذا، ما دام السلاطين المتابعين أسرى بيد الفرنسيين، فإننا عازمون على عدم الاعتراف بشرعيتهم وعلى إقناع جيراننا بنفس التوجه».

انتقل إلى السؤال الموالي الذي ربما كان أصعب الأسئلة على الإطلاق لاتصاله بموقف حكومة الريف من فرنسا. ولو كنت أعلم إذاك ما صرت أعلمه الآن من كون

حلفاء الريف من العرب كانوا في ذلك الإبان بالذات يدفعونه في اتجاه الدخول في الحرب ضد فرنسا، وكانت هذه التصريحات تتخذ دلالة أعمق.

استرسل قائلا: «إننا نكن غاية المودة لفرنسا ولم نرغب أبدا سوى في علاقات ودية معها كما ليست لدينا أي رغبة في مهاجمة المنطقة الخاضعة لفرنسا، بل إنني أعتبر الحرب مع فرنسا غير واردة بالمرة، عدا إذا ما تمت مهاجمتنا. إننا نمد يد الصداقة إلى فرنسا ونتمنى بصدق أن تُقبل صداقتنا. على أن بعض الشروط لا بد أن تتحقق قبل أن تصبح هذه الصداقة فعلية.

إن المشاكل الحدودية، مثل تلك الحاصلة بنواحي بني زروال، يستحيل تفاديها في ظل الأوضاع القائمة. لكنني أؤكد أننا لم نهاجم أبدا أي فرقة عسكرية فرنسية أو أي قبيلة من القبائل الموالية لها كما أؤكد أنه لم يسبق لأي جندي نظامي ريفي أن تخطى الحدود الفرنسية الفعلية الممتدة على طول المراكز العسكرية الفرنسية المتقدمة.

لن يمكن تفادي المناوشات على الحدود إلا بوسيلة واحدة، وهي تعيين الحدود بكيفية عادية. ونقترح أن يكون هذا الشرط واحدا من شروط السلم عندما يأتي وقت مؤتمر السلم الذي لا مفر منه. وسوف يكون من اللازم تأسيس لجنة لرسم خط الحدود بين بلدنا والمناطق المغربية الخاضعة لفرنسا. فالخط الحالي للحدود لا يوجد إلا في أذهان الدبلوماسيين الذين وضعوه حيث أنه تم رسمه في سنة 1904 بين المتفاوضين حول المعاهدة الإسبانية- الفرنسية. ونحن لا نعترف بهذه المعاهدة كما لا نعترف بتلك الحدود التي تمر وسط القبائل وأحيانا وسط القرى. ويمكن التأكيد أنه لو أقرت حدود فعلية وطبيعية تستند إلى الأودية والجبال لما بقي بيننا وبين فرنسا أي نزاع في المستقبل».

لا بد من التذكير هنا بأن هذه التصريحات كانت تأتي من فم زعيم يخضع للضغط على واجهتين، إذ لم يكن من العسير التعرف على الطرفين الممثلين في حاشية عبد الكريم. يتمثل الطرف الأول في كل من حميد بوردرة واليزيد بن الحاج اللذين يميلان إلى الحرب ولا يرغبان في أي سلم لا مع إسبانيا ولا مع فرنسا. أما الطرف الثاني، فيمثله

سيدي محمدي الذي يكاد يطلب السلم بأي ثمن لكي يتم الحفاظ على الوحدة الوطنية للريف نفسه. ففريق سيدي محمدي لم يعر أبدا أهمية تذكر للسيطرة على جباله، كما أنه من أقوى الأطراف الحريصة على استمرار الهدوء على الحدود مع المناطق الخاضعة لفرنسا. هكذا، كان عبد الكريم يتخذ - عبر تصريحه - موقعا وسطا حيث قال بالفعل إنه بالإمكان تفادي المصاعب مع فرنسا لو أن رسم الحدود تم بطريقة عقلانية لكن لن يمكن ذلك أبدا إذا لم تتغير الحدود.

وعند نهاية الاستجواب الرسمي، عاد السلطان إلى موضوع آفاق السلم مع إسبانيا قائلا:

«إن كانت إسبانيا ترغب في السلم، فيإمكانها طلب الهدنة والدعوة إلى عقد مؤتمر لتحديد شروط الصلح. لكن إن كانت إسبانيا تريد الحرب، فنحن مستعدون لها على مدى العديد من السنوات. لدينا ما يكفي من الأسلحة والذخيرة للاستمرار في الحرب خلال السنتين القادمتين ولن ينضب تزودنا من الأسلحة والذخيرة ما دام للجنود الإسبان ما يفقدونه منها. إن شعبنا مقدم متمرس على الحرب ومصمم على القتال. وقد مكنتنا انتصاراتنا خلال الأربع سنوات الماضية، منذ أن تأسست حكومتنا، من السيطرة عمليا على مجموع شمال المغرب، ونحن واثقون من أن مهلة ستة أشهر سوف تكون كافية لكي نسط نفوذنا على الباقي. لسنا راغبين في الحرب، ولكننا سوف نقاتل إلى أن يتم السلم الكفيل بتلبية مطامح شعب حر مستقل.

إن انسحاب الإسبان من منطقة جباله - الذي تم تحقيقه مؤخرا - ، يعد بالنسبة لإسبانيا نكسة أفظع من هزيمة أنوال سنة 1921. لقد ضاعف هذا الانسحاب قوتنا القتالية بثلاثة أضعاف، حيث أنه منحنا موالاة مجموع منطقة جباله، دون الحديث عن الألفي أسير إسباني وعن آلاف البنادق والمدافع فضلا عن غنائمنا المالية الهامة. هكذا،

التحقت بنا كل قبائل غرب المغرب باستثناء واحدة، هي قبيلة بني عروس التابعة للريسولي¹؛ ونحن الآن نعد العدة لكسب ولائها بالقوة».

كانت هذه الإشارة إلى الريسولي من الاستطرادات المثيرة، وكنت أتساءل متى وكيف سوف يثار موضوع سيطرة الحديد على القديم، أي تغلب عبد الكريم على الريسولي. لكن السلطان رفض مناقشة الموضوع، واسترسل في الحديث عن تنظيم الحكومة الريفية، مؤكداً الكثير من الأقوال التي سبق لوزرائه أن فاهوا لي بها، كما فند بالمنسبة الشائعات الرائجة حول المساعدات المالية السوفياتية الضخمة أو المساعدة العسكرية من قبل بعض الضباط الألمان. وعلى صعيد آخر، تحدث عن الثروات المعدنية الموجودة ببلاد الريف وعبر عن عميق أمله في أن ينتبه الرأسمال الأمريكي إلى الفرص الاستثمارية المتاحة بالريف قبل فوات الأوان.

واستمر قائلاً: «إن المستقبل بالنسبة لبلادنا لا حدود له. إننا واثقون من طاقاتنا الصناعية ومن قدرتنا على التآلق في السلم كما فعلناه في الحرب، ونطالب العالم الخارجي باسم العدالة أن يمنحنا الفرصة لإعطاء الدليل على ذلك. فإذا لم يرد العالم منحنا السلم ونحن مستعدون له، فسوف نقاتل إلى أن نفوز به بحد السيف ومشية الله».

كانت هذه إشارة إلى نهاية الاستجواب. كانت هيئته وهو يأذن لنا بالانصراف ملوكية إلى أقصى درجة. نهض سيدي محمدي وحذوت حذوه ببعض التردد. مد لي السلطان يده مبتسماً وأخبرني أن كل الترتيبات قد اتخذت بأمر منه لكي يمر الباقي من سفري في أحسن الظروف. لم ينهض من مكانه بل عاد إلى أوراقه قبل أن يغادر الغرفة.

ثانياً - متابعة جريدة الوقت التركية لمستجدات الجبهة الريفية

1- "تطورات قضية فاس [المغرب]²."

¹ هكذا يورد المؤلف اسم القائد الجبلي المتمرد الذي فضل التحالف مع الإسبان في آخر أيامه قبل السقوط في قبضة ابن عبد الكريم.

² سبق لي أن استعملت بعض العناصر الواردة في مقالتي محمد عاصم في نص بالفرنسية تحت عنوان "Résistance anticoloniale et émergence d'une structure politique étatique moderne : Bin 'Abd al-Karim

"أحرز المجاهد عبد الكريم¹ - حسبما يفهم من المعلومات الواردة من فرنسا - على انتصار جديد على القوات الفرنسية. ونتيجة لهذا الانتصار، أخلت القوات الفرنسية عددا من المواقع. إن هذا الانتصار الجديد الذي أحرزه عبد الكريم يمثل حدثا خارجا عن أي من التخمينات السابقة. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن مسألة فاس [المغرب] سوف تبدأ صفحة جديدة. وكما هو معلوم، فقد طرد المجاهد عبد الكريم - منذ مدة قصيرة - القوات الإسبانية إلى حدود ساحل البحر. وكانت الحكومة الإسبانية تستعد لعقد الصلح مع عبد الكريم نظرا لكونها اقتنعت بعدم جدوى محاربة الريفين. وفي هذا الوقت بالذات، شرع عبد الكريم في القيام بهجماته على القوات الفرنسية بعد أن أفلح في شل حركة القوات الإسبانية على الساحل. ومنذ الهجمات الأولى، حقق نتائج باهرة جلبت إليه أنظار العالم مما جعله يرفع من وتيرة تحركاته إلى غاية اليوم على الرغم من الاستعدادات العسكرية والهجمات المضادة الفرنسية. بل إن الاعترافات الرسمية الفرنسية ذاتها تقر بأنه أحرز مجموعة من الانتصارات لا يستهان بها. فحينما قام المجاهد عبد الكريم بهجماته الأولى، أثر ذلك على الجمهور الفرنسي تأثيرا بليغا مما حدا بالحكومة الفرنسية إلى العمل على كبح هجماته بكامل السرعة مهما كلفها ذلك من ثمن. ولذلك شرعت فرنسا في نقل أعداد غفيرة من العساكر وكميات ضخمة من العتاد إلى المغرب. كما أنها أولت أهمية خاصة لتشكيل قوات جوية ضمن هذه

"Réforme de l'État et réformismes au Maghreb, sous la direction de Mustapha Kemal" صدر ضمن مؤلف dir. Odile Moreau, éd. L'Harmattan, 2009, pp. 139-157. ويطلب لي أن أجدد الشكر إلى كل من د. عبد الحفيظ الطبايلي الذي مكنتني من الحصول على بعض النصوص المنشورة في جريدة الوقت وسليمان طغرال الذي تفضل بإبداء ملاحظات مفيدة على الترجمة العربية لهذين النصين. وفيما يتعلق بتسمية المغرب، فمن المعلوم أن الاسم التقليدي الذي يطلقه الأتراك على هذا البلد كان هو "فاس"، لا شك لكون أول اتصال لهم بالمغرب كان أيام الوطاسيين حيث كانت العاصمة هي فاس. ومن عادة الأتراك أن يسموا البلدان تبعا لعواصمها مثلما فعلوه بالنسبة للجزائر أو تونس. على أن محمد عاصم يستعمل فاس بمعنى المغرب في حالات نادرة مفضلا الاصطغاف على البلدان الغربية في استعمال كلمة المغرب.

¹ الملاحظ أن الصحيفة التركية تستعمل اسم الشهرة باستمرار تبعا لما كان مألوفا في الصحافة الأوروبية آنذاك، مما قد يدل أيضا على كون معرفة الصحفي التركي بالقضية الريفية كانت معرفة غير مباشرة، تتم أساسا عبر القنوات الأوروبية.

الاستعدادات. وبناء على أهمية هذه القوات، فإن المراقبين يعتبرون أن الحكومة الفرنسية تسعى إلى إدخال منطقة الريف تحت نفوذها.

وخلال الأيام الأخيرة، راجت بعض الشائعات حول تبادل المذكرات بين الإنجليز والفرنسيين، مفادها أن يكون الإنجليز أحرارا في الموصل مقابل وشريطة أن يكون الفرنسيون أحرارا في المغرب. وهذا ما زاد من حجم الشكوك في كون الهدف من الاستعدادات الفرنسية ليس هو الدفاع عن الوجود الإسباني بالريف بقدر ما هو الاحتلال الكامل للمنطقة. وعندما استكملت فرنسا استعداداتها الكبرى شرعت في تنفيذ هجماتها المضادة، وإن كانت لم تفلح في التوصل إلى النتائج المرتقبة إذ أن عبد الكريم تمكن من صد كل الهجمات الفرنسية مما دعا فرنسا إلى القيام بهجمات جديدة، دون طائل. وبعد حين، أصبحت الحكومة الفرنسية تخشى من تفاقم الوضعية، فقرر المسيو بانلفي (Painlevé)¹ التنقل بنفسه، بواسطة الطائرة، إلى جبهة القتال المغربية للاطلاع على حقيقة الأوضاع بكيفية مباشرة. وبعد سفره هذا، توصل المسيو بانلفي إلى القرار التالي: إن عبد الكريم يمثل قوة بالمغرب لا يمكن إهمالها من قبل فرنسا، بل يجب تقدير قوته حق قدرها وبالتالي عقد الصلح معه. إلا أن البحث في الصلح لا يتأتى في الأوضاع الحالية، ذلك أنه على فرنسا أن تثبت لعبد الكريم قبل كل شيء قوتها المادية بالوسائل العسكرية حتى تقنعه بأن وضعية فرنسا بالمغرب ليست كوضعية إسبانيا. بعد ذلك، فقط، يمكن اللجوء إلى الصلح الذي سوف ينقذ ماء الوجه.

وبناء على هذه الخلفية، وعلى إثر زيارة بانلفي للمغرب، تم استئناف نقل العساكر والعتاد إلى هذا البلد مما خلف تعزيزا للجبهة الفرنسية. وكان المنتظر من هذه الإمدادات الجديدة أن تؤول إلى انتصارات فرنسية واضحة، فإذا بالأخبار تتوالى عن كون المبادرات المنتصرة لم تكن من جانب الفرنسيين بل كانت من حظ المجاهد عبد

¹ كان بول بانلفي رئيسا للحكومة الفرنسية بين أبريل ونونبر سنة 1925.

الكريم الذي حققت هجماته الجديدة انتصارات واضحة، مما أثار انتباه الملاحظين إلى ما يجري بالمغرب.

والواقع أن الهجمات الجديدة التي نظمها عبد الكريم كانت على قدر كبير من الأهمية لأنها كانت تهدف إلى تخليص كل من مدينتي فاس وتازة. وإذا ما انتقلت هاتان المدينتان إلى يد مجاهدي الريف، فإن ما سيبقى لفرنسا بشمال المغرب هو نصف ممتلكاتها فقط، فيكون نفوذها على النصف الآخر بمثابة المفقود. ولو تحقق هذا الأمر، لعب ذلك عن الفشل الذريع للجهود التي بذلها الفرنسيون في منطقة المغرب منذ عشر أو اثنا عشرة سنة. ومنذ زمن قريب، اقتنع الفرنسيون بأن الوسائل العسكرية الموجودة راها بالمغرب لن تمكن من ردع حركة عبد الكريم، فأصبحت كل آمالهم تراهن على تفتيش سواحل الريف إذ أن فرنسا تظن أنه إذا ما تم منع كل المساعدات التي تصل لعبد الكريم عن طريق البحر، فإن قواته سوف تنحل من تلقاء نفسها. ولهذا السبب قررت بعض التدابير المشتركة في المؤتمر الفرنسي - الإسباني المنعقد في مدريد. ومن جهة أخرى، جرت مفاوضات بين دول فرنسا وإنجلترا وإيطاليا لاتخاذ بعض التدابير العسكرية في منطقة طنجة. على أنه من المشكوك فيه جدا أن تنجح أي من هذه المذاكرات والقرارات والتدابير في إطفاء جذوة الحركة التي بدأت بالريف تحت راية عبد الكريم أو تحد من انتشارها".

بتاريخ 11 يوليوز 1925

2- "ريفستان (دولة الريف) المستقلة

عندما كتبنا في مقالتنا بالأمس أن مسألة المغرب دخلت مرحلة حاسمة، لم نكن نتوقع أن تؤيد الأحداث توقعاتنا بمثل هذه السرعة. ولم نكن نتخيل أنه في نفس الآن كانت التلغرافات تنقل خبرا مفاده أن دولة مسلمة مستقلة جديدة كانت تتشكل بالمغرب بعد أن تكونت سابقتها بتركيا. لكن الظاهر من مجريات هذه الوقائع التاريخية أن دولة مستقلة كادت تتكون في بلاد الريف تحت رئاسة المجاهد عبد الكريم. وهذا الاحتمال أمر تاريخي لا بد أن يحصل. ذلك أن الذين ادعوا - أثناء مذكرات المؤتمر الفرنسي - الإسباني، المنعقد بمدريد - أن التباحث في شأن الصلح لا يجوز إلا بعد أن يوقف عبد الكريم عند حده بقوة الحرب والضرب، قد بدلوا رأيهم بصورة مفاجئة واقترحوا عقد الصلح على أساس منح الاستقلال لعبد الكريم بمنطقة الريف شريطة أن يعترف بمشروعية حكم سلطان المغرب. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الاحتمال المذكور أمر حتمي لا بد أن يتحقق عاجلا أم آجلا.

والواقع أن هذه ليست المرة الأولى التي يعرض فيها الفرنسيون والإسبان عقد الصلح على عبد الكريم إذ وقع التباحث فيما قبل مع مجاهد المغرب في أمر الصلح والمسألة. إلا أن العروض السابقة لم تقبل قط باستقلال الريف، مما جعل عبد الكريم يرفضها باستمرار. وفي الأخير، اتخذت كل من فرنسا وإسبانيا هذه المرة قرار القبول بنشأة دولة إسلامية مستقلة جديدة بأقصى غرب شمال إفريقيا.

لكن ثمة نقطة تستوجب التريث، وهي أنه لا يُعرف إلى حد الآن مدى مصداقية القرار الفرنسي - الإسباني من عدمها. فمن المحتمل أن يكون المقترح الفرنسي - الإسباني نابعا من رغبتهم في صد الهجمات الموفقة لعبد الكريم بهجوم مضاد ذي طبيعة سياسية. ومن المحتمل أيضا أن فرنسا وإسبانيا، بينما تقترحان على عبد الكريم شرائط الصلح القائم على الاستقلال، تمددان عن قصد وقت المذكرات في حين

تستعدان على الصعيد العسكري بهدف استئناف القتال مجدداً بكيفية مفاجئة في أول مناسبة. بيد أنه حتى ولو كان اقتراح فرنسا وإسبانيا بمنح الاستقلال لعبد الكريم اقتراحاً غير صادق، فإنه مع ذلك على درجة كبيرة من الأهمية لأن اقتراحاً من هذا القبيل يبرز على الأقل، من جهة، أن عبد الكريم يتحكم تماماً في الأوضاع العسكرية على الجبهة الريفية، ومن جهة أخرى، أن هذا التحكم بهذه الدرجة إنما هو مقدمة لتراجع قطعي لسياسة الاستعمار في المغرب.

ولذلك، ما دام جهاد أهل الريف قد دخل المرحلة التي شاهدها اليوم، فإن فرنسا وإسبانيا اقترحتا الصلح على عبد الكريم بمنحه الاستقلال بدلاً من الاستمرار في الحرب معه. إن مثل هذا الاقتراح سوف يصبح صادقاً غداً ولو لم يكن كذلك اليوم. وهكذا، فبعد تركيا، تكون هذه هي الأمة الثانية في العالم الإسلامي التي تنتزع استقلالها من يد الدول الغربية بالجهاد والمقاتلة.

إن الأتراك يعلمون أكثر من أي أمة أخرى مدى ما يعترض طريق مطلب الاستقلال من مشاكل ومخاطر. ولهذا السبب، لا يعتقد الأتراك بأن المسألة سوف تنتهي بأن يقول الفرنسيون والإسبان للمجاهد عبد الكريم: «لنعترف لك بالاستقلال ولنعتقد الصلح!» ولكن الأتراك، مع ذلك، يقدرّون تمام التقدير مدى أهمية التقدم الذي أحرزته الريفيون اليوم على طريق تحقيق الاستقلال.

والآن، فإن الموضوع الذي يحظى بالجانب الأكبر من اهتمام المتابعين هو كيف سيتلقى عبد الكريم اقتراح الصلح الذي تقرر في مدريد. ترى ماذا سيكون رد فعل عبد الكريم على هذا الاقتراح؟ هل سيقبل بشروط الصلح مع تعديلات قليلة أو كثيرة؟ أم أنه سوف يستمر في الجهاد إلى أن تصبح بلاده دولة مستقلة قادرة على العيش باستقلال تام؟ إنه من الصعب جداً أن نجيب على هذه الأسئلة من الموقع البعيد الذي نوجد به، لا سيما أننا لا نعرف الشروط العامة في بلاد الريف. ومع هذا، فمهما كانت الوضعية

السياسية التي ستنشأ في المغرب من جراء هذه التطورات، فإن النتيجة النهائية سوف تؤول إلى نفس المآل. ويبقى الفرق الوحيد بين النتيجة الآنية والنتيجة المؤجلة هو طول أو قصر المدة الزمنية.

ومهما يكن من أمر، فالنتيجة الحالية التي توصل إليها جهاد أهل الريف تظهر أن الوقت قد حان لكي تغير الدول الغربية سياستها على نحو ما تجاه الأمم الإسلامية التي تقع تحت استعمارها. فمن منفعة تلك الدول أن تعدل سياساتها بناء على ما تعبر عنه حركة عبد الكريم من قيم. وبقدر ما تتأخر في تقدير هذه الحقيقة بقدر ما سيلحقها من ضرر. بل لا بد لها من الاقتناع بما يلي: إن الانتصارات الكبرى في مجال السياسة تنتج عن فهم الحقيقة قبل أن تتحقق واختيار أقرب الطرق الموصلة إليها بدون تردد".

بتاريخ 12 يوليوز 1925